رسالة السينما الاجتماعية

لحضرة صاحب العزة عبد الله بك فكرى أباظه

وكيل وزارة التجارة

صناعة السينما فى مصر لم تجتز من العمر ربع قرن سارت فيه بخطوات متوسطة فهيهات أن يقارن انتاجنا الأهلى اليوم بانتاج عشرين عاما مضى . فقد تقدمت نسبيا فى كل ناحية من نواحى الصناعة — تأليفا واقتباسا وإخراجا وتمثيلا وتصويرا وتجميلا للوجوه وتسجيلا للأصوات وتنسيقا للمناظر .

ولعل العامل الأول فى تقدمنا مرجعه مركزنا الجغرافى والدولى الذى جعلنا نتلقى الأفلام الأجنبية من أمريكية وانجليزية وفرنسية وألمانية ويونانية — وأن تتاح لنا بذلك فرصة المقارنة والنقد والدراسة والاستفادة بتجارب الغير — فكان فى هذا خير مدرسة عملية لتكوين الذوق السينمائى وتوجيه المحررين .

ولا شك أن فيما شاهدناه من آلاف الأفلام الأجنبية التى وردت ولم تزل ترد كل يوم ما يجعلنا ندرك أن لكل أمة طابعها ومدنيتها وثقافتها وأهدافها وعقائدها وعاداتها وسياستها ، وأن الأفلام التى تنتجها كل أمة ما هى إلا المرآة التى تنعكس عليها طبيعة الحياة فى هذه الأمة فتنقل صورها المختلفة إلى الأمم الأخرى التى تشترى هذه السلعة العصرية الاجتماعية الخطيرة الشأن .

والسؤال الذى يتبادر إلى أذهاننا هو هل استفدنا من مشاهداتنا ومن ثمرات تفكيرنا سبقونا فى الميدان وإذا كنا قد استفدنا فهل كان ذلك بالقدر الواجب ؟ أجيب على الشطر الثانى من السؤال بالنفى وأن أرجع سبب التقصير فى ذلك إلى الحكومة والمنتجين والفنيين والجمهور على السواء .

أما نصيب الحكومة فى التقصير فيتلخص فى نقص يدها من هذه الصناعة الحديثة ووقوفها منها وقفة المتفرج لا أكثر ولا أقل ولم تتغير هذه السياسة السلبية منذ ربع قرن حتى اليوم — اللهم الا فى الرقابة على الأفلام وهى رقابة بيروقراطية تنحصر فى حدود التعليمات واللوائح الحكومية وتقتصر فائدتها المحدودة على مجرد منع بعض الشرور عن الذيوع والظهور والحكم فى هذا اعتبارى بحسب الظروف والأحوال فقد حدث فيما أعلم أن أجازت الرقابة حالة فى فيلم ثم حرمت مثلها فى غيره من الأفلام وكانت العبرة فى التحريم أو الأجازة بتقدير اللجنة أو بمبلغ ما لأصحاب الفيلم من حظوة أو سلطان . ومهمة الرقابة محصورة فى دائرة محدودة النطاق بالنواهى والتعليمات كتحريم قبلة مثيرة أو رقصة بطن خليعة أو صفعة على الوجه أو ركلة بالقدم أو كلمة نابية مفتوحة أو شبهة تعريض مباشر أو غير مباشر بسياسة الحكومة وهكذا مما لا يتسع له التفصيل ولكنه كله لا يخرج عن دائرة (الروتين) الذى لا حياة ولا توجيه فيه .

فهل يكفى أن تقف رقابة الحكومة عند هذا الحد السلبى الهزيل الذى لا ينفع ولا يشفع وهلا ترانا أشد ما نكون حاجة خصوصا فى مستهل حياة هذه الصناعة الحديثة العظيمة إلى اشراف جدى وتوجيه فنى سليم ووضع برامج للانتاج كما توضع برامج التعليم سواء بسواء . أو ليست السينما مدرسة شعبية واسعة النطاق يتعلم فيها المتعلمون والأميون على السواء ويقصدها عدد من الشعب لا يقل عن عدد طلاب المدارس أن لم يكن اضعافه المضاعفة فهل من الخير أن تترك هذه المدارس الشعبية فوضى يستغلها الطامعون فى الربح فيسيئون توجيهها ويعبثون بمستقبلها وبرسالتها .

أو ليست للسينما رسالة وطنية واجتماعية وثقافية ودينية وخلقية وفنية أو ليست السينما تجيء أداة للدعاية القومية وأصلح وسيلة للنهضة التعليمية والتهذيبية . خصوصا فى شعب لم تزل تسعة أعشاره أميين يستطيعون الاستفادة بالنظر والاستماع دون أن يستطيعوا الكتابة والقراءة ؟

فماذا عملت الحكومة للانتفاع بهذه الصناعة الحديثة وإفادتها وتدعيمها بوضع برامج يتمشى فيها وتزويدها بالمساعدات الأدبية والمالية وإنشاء المعاهد وإيفاد البعثات للخارج لاستحضار الخبراء ؟

مضى على هذه الصناعة الهامة ربع قرن من العمر فى مصر — دون أن تقوم الحكومة بأى نصيب يذكر فى هذه النواحى ، بل تركت كما يترك الطفل اليتيم بلا مرشد أو عائل . فنشأت هذه الصناعة هزيلة ونمت بطيئة عرجاء واتجهت فى معظم الانتاج إلى ناحية الاستغلال التجارى الرخيص والاستفادة من جهل غالبية الجمهور بدل تعليمه وتوجيهه ورفع مستواه .

ولم توضع للانتاج خطط ولا مناهج بل ظلت الجهود فردية رائدها الكسب أيا كانت وسائله والتهريج الرخيص مهما فشت رذائله — وبدل أن تكون السينما مدرسة شعبية كادت تنقلب إلى نكبة قومية على الأخلاق والدين والتقاليد الشرقية والإسلامية وجرفتنا موجة من التقليد الأعمى لبعض الأفلام الأجنبية فلم نتقن تقليدها ولم نضع ما نقلناه عنها فى مواضعه فلخطأنا التوفيق والنجاح .

أننا بلد له تاريخه ومجده القديم وله نهضته القومية الحديثة وله تقاليده ومكانته من بلاد الشرق فهل عنينا بتسجيل شىء من هذا وهل وجهت الحكومة منذ تأسيس هذه الصناعة الى اليوم شيئا من الالتفات لإنتاج نوع معين من الأفلام تخليدا لتاريخنا القديم أو الحديث ودعاية لنهضتنا الحاضرة ، ونشرا لحضارتنا ، وتعريفا بالعالم بنا ، أو تقوية للروح القومية أو نشرا للفضائل الخلقية والدينية ومحاربة للرذائل الشائعة فى العالم كله — كالكذب والنفاق والملق وخلف المواعيد والمحسوبية والأنانية وحب الظهور والإسراف والدس والخيانة والتهرب من الخدمة العسكرية وغيرها وغيرها مما يستحق كل منها معالجة خاصة .

أو ليس من واجبات الحكومة الأولى أن تشجع بكل ما أوتيت من وسائل أدبية ومادية اخراج أفلام يتذوقها سواد الشعب لتثقيفه وتقويم المعوج من أخلاقه وتقوية روح الوطنية العالية فيه — فهل تم شيء من هذا فى كثير أو قليل ؟ الجواب سلبي بلا مراء . أننا فى حاجة لإخراج مئات من الأفلام التهذيبية للأطفال على الطريقة التى يحبونها فى الأفلام الكرتونية الأمريكية الملونة . فى حاجة لإنتاج كثير من أفلام المناظر الطبيعية الجميلة للدعاية ولتهذيب الذوق العام ، فى حاجة لإنتاج الأفلام التعليمية فى شتى نواحى الحياة من صناعية وزراعية وتجارية وصحية واجتماعية ، فى حاجة لأفلام مسلية قصيرة ينصب فيها التهريج والمرح والرقص والاستعراض حتى تتفرغ الأفلام الكبرى لمعالجة شؤون الحياة الاجتماعية معالجة ناضجة متقنة لايفسدها عنصر المادة التى تجيء من وراء الخروج عن الموضوع لإظهار رقصة نابية أو هز أرداف أو القاء منولوج — بغير مبرر ولا سبب اللهم إلا إرضاء لشهوة الجمهور واستدرارا لدراهمه واستغلال بساطته وسلامة طويته .

ان صغار الطلبة يسرهم أن يملأ الأستاذ فراغ ساعة درسه بالحكايات (والنكت) المثيرة لضحكهم ولكن الأستاذ الذى يسرف فى استغلال هذه الظاهرة فى تلاميذه فيقصر فى تحضير درسه انما يكون آثما يخون واجبه و يعبث بمستقبل طلابه .

فأول واجب على الحكومة أن تمسك بزمام هذه الصناعة الحديثة الهامة وأن تتعهدها بالتوجيه الصحيح والرقابة الحذية الصالحة وأن تضع لها هيئة دائمة مشتركة بين حكومية وغير حكومية لوضع البرامج وتوزيع الانتاج وتخصيص معاونات مالية كريمة لحمل المنتجين على تنفيذ السياسة المرسومة — يوم ترسم تلك السياسة .

ولكى أكون صادقا ومنصفا — أذكر أن مساعدات الحكومة الآن قاصرة على دفع إعانة سنوية قدرها ١٧٥٠ جنيها لشركة مصر للتمثيل والسينما مقابل إنتاج بعض أفلام الدعاية وهو مبلغ ضئيل جدا لايجعل الشركة تعنى بتحقيق أغراض الحكومة فى هذه الناحية فتقتصر هذه الأفلام على مايجيء بالجريدة السينمائية لبعض الحوادث الهامة التى تحدث بالبلاد كافتتاح البرلمان ومهرجان المحمل واستعراض الجيش وحفلات الرياضة الكبرى وما الى ذلك من الحوادث ذات الشأن غير أن البقاء فى هذه الحدود المتواضعة من التفيد والإعانة لايعتبر جديرا بالذكر ولا بالتسجيل . كما أن الحكومة أخيرا — ممثلة فى لجنة ترقية التمثيل والموسيقى — قد شرعت فى وضع أسس لمنح جوائز لأحسن الأفلام ولكن القواعد لم توضع بعد كما أن المبلغ المعتمد لتنفيذ الفكرة من الضآلة بحيث لايمكن أن يكون أداة فعالة للتشجيع ورفع مستوى الانتاج ولكننى متفائل من حسن الاتجاه الذى أعرفه فى هذه اللجنة وحماسة رئيسها وأعضائها لفكرة التشجيع وسلامة توجيه .

هذا فيما يتعلق بالحكومة أما ما يتعلق بالمنتجين فليسمحوا لى بأن أكون صريحا معهم جريئا فى مخاطبتهم مجتمعيا بكرم ضيافتهم الليلة فى ناديهم — وليست فى الواقع إلا واحدا منهم بحكم اشتراكى للعمل وللمالى فى الانتاج سابقا وبحكم اشتراكى المالى دون العملى حاضرا .

أسائلهم وأناشدهم ضمائرهم؟ ولا أستشهد عليهم إلا بذمتهم ؟ هل ينتجون لسوق ما يرضى نفوسهم ارضاء كاملا من النواحى الفنية والموضوعية والخلقية أم يضطرون إلى النزول لمستوى الجمهور البسيط حتى يفجر ضاحكا أو يفجر دموعا — وجمهورنا البسيط عاطفى سريع الحساسية يثير ضحكة الساذج للصاخب التهريج الرخيص والنكتة المكشوفة وتلعيب الحواجب والتصفيع على القفا وما إلى ذلك من مجون . ويثير بكاءه السريع كل موقف مؤثر يتقن تمثيله وإن كان مفتعلا لا يستسيغه المنطق ولا تهضمه العقلية المتزنة .

فهل فعل المنتجون هذا عن جهالة ؟ كلا معاذ الله — بل إنهم يفهمون جيدا أن مستوى هذين يدفعون القروش التى يتكون منها الإيراد الوفير يتطلب هذا الإنزلاق والخروج عن أصول الفن والاجتماع وقواعد التهذيب وحسن التوجيه والارشاد . ويقيسون نجاح الفلم بمدى نجاح المالى الذى يصيبه — وإقبال الجمهور عليه — وإن كان هذا النجاح المالى على حساب النواحى الأدبية والفنية والقومية .

وأنى حين أتكلم فى هذه الناحية أتزر حقا حين أقول بأن الربح الذى يجنيه بعض منتجى الأفلام فى مصر ربح يفوق حد الاعتدال بل قد يصل الى حد سوء الاستغلال . ذلك لأن هؤلاء البعض يقدمون بضاعة رخيصة ولكنهم يتقاضون عنها أجرا باهظا من الجمهور الساذج الذى يقبل عليها لأنها ترضى غرائزه وتوافق فطرته . فاذا كانت الغريزة البشرية الفطرية تصبو إلى مشاهدة جسم عار فانهم يقدمون له أنواعا من هذا النوع عن طريق الرقص الخليع أو الاستحمام أو غيرهما ، وإن تنافر هذا مع أوضاع التهذيب والتربية والذوق السليم . وأن أسواق الجمهور البرىء ميالى للدعابة والهزل ، فانهم يمعنون فى حشر الهزل فى كل موقف حتى يصل الى درجة الابتذال الرخيص والعبارة النابية فتنقلب رسالة السينما من تهذيبية إلى إباحية . وأود أن يتصور معى القارئ أن تتبدل المدارس التى أنشئت لتعليم الشعب الى صالات رقص ودور لهو وتنمية شهوات — والطامة الكبرى فى هذا ان مشاهدة الأفلام بكافة أنواعها مباح للجميع بلا فارق بين الكبار والصغار والسيدات والآنسات والأولاد والأطفال — وما تحرمه أصول التربية فى المنازل فى الناشئين والناشئات يكون مباحا فى دور السينما لكل سن وكل جنس مما تنبه ناحية تهدمه ناحية . وما يتعب فيه الآباء يجود بعض المنتجين من طالبى الثراء — أفلا يجب أن نطالب مثل هؤلاء المنتجين بالقناعة أكتفاء ببعض ما يربحون وهو كثير دون أن يعنوا على الآداب والأخلاق والتقاليد الشرقية بتقويمة — وأود أن أؤكد عن علم ويقين بأن الفلم المصرى الذى يكون إقبال الجمهور عليه متوسطا لا يمكن أن يربح فى النهاية أقل من ٥٠٪ من رأسماله وأية صناعة أو تجارة أخرى يصل

ويحملها إلى مثل هذا المستوى ؟ فلماذا لا يقنعون بهذه النسبة الكريمة حلالا لهم دون إضرار بالبلاد التي أنبتتهم . أو أكرمت ضيافتهم وبدلا من الطمع فى ربح فاحش على حساب الشعب هو والربا الفاحش الذى يعاقب عليه القانون سواء .

بقيت كلمة للفنيين الذين يقوم على كواهلهم العمل التنفيذى من مخرجين إلى ممثلين وهؤلاء تقع عليهم أعباء المسئولية أكثر من غيرهم لأنهم الأداة التى يعمل بها المنتجون وهم فى النهاية — وأمام الجمهور — البانون أو الهادمون .

ان المخرج طبيب يعالج أمراض المجتمع وينقل صور الحياة من حلوها ومرها — وخيرها وشرها — إلى الشاشة ليسقى المرضى الدواء فى برشامة — سهلة التناول أو شراب سائغ المذاق حتى تصح أجسامهم وتشفى نفوسهم — فليحرص على ألا يختلط دواءه مادة سامة تلحق الردى بمرضاهم — وتعجل فناءهم بدل أن تعجل شفاءهم — ان المنتجين لا يدخلون عادة فى التفاصيل أو التقطيع أل وكثيرا ما تؤثر هذه التفاصيل على مجرى الفلم وموضوعه — فيقوم المخرجون بوضع (البهار) فى الطعام ويغالى بعضهم فى التذويق والتنسيق حتى (تخنق الطبخة) لأن رائدهم فيما يصنعون إقبال الجمهور ، وضحك الجمهور ، وتصفيق الجمهور ، وتمجيد الجمهور . أما تثقيف الجمهور وتهذيبه وتكوين ذوقه ورفع مستواه فلا يعتبرون أنفسهم مسئولين عنه وذلك بعينه هو سوء استغلال ضعف العامة بدلا من تقويمه — وهذا إخلال بالواجب الفنى والوطنى يدعو لليقظة والرقابة والإصلاح .

ويشترك فى هذا الوزر والقصور بعض كبار الممثلين الذين تستهويهم المادة وتغريهم ضحكات الجماهير فيجرحون فى تأدية أدوارهم عن حدود الاعتدال والمعقول إلى التهريج الذى يتنافى مع أصول الفن وسلامة الأداء .

فإن كان فى هذا بعض العذر فى بعض الأفلام الأمريكية فيجب ألا نخلط بين أنواعها المختلفة فمثل هذا التهريج لا يرحم إلا فى الأفلام الكوميدية القصيرة التى توضع تكملة للبرنامج . ثما لنا نعوض نقص إنتاج مثل هذه الأفلام بنقص أكبر ونحو إنتاج أفلام طويلة ليست ذات موضوع أو ذات موضوع فكاهى يكفيه فصل أو فصلان على الأكثر من فصول السينما .

إنى أشفق على ممثل عظيم يقوم بأمر المخرج — أو يدافع عن نفسه — باستجداء ضحك الجمهور بحركات فيها كثير من الافتعال والإساءة لشخصيته ولسلامة تأدية دوره تأدية فنية صادقة .

إن الممثل معلم للشعب فيجب أن يحوز دائما حبه واحترامه وليس الممثل مسخا يتسلى به الجمهور وإن مثل خلفا أو أهدر الكرامة — فهل لى أن أناشد المخرجين والممثلين أن يقفوا فى سبيل العابثين من بعض المنتجين ليصلوا بالأفلام المصرية إلى المستوى الذى يحافظ على شرف سمعتها وتأدية رسالتها الاجتماعية فى حدود الكرامة والتقاليد القومية الصالحة ومقتضيات

الفن السليم ومكارم الأخلاق — إننا لم نزل فى المرحلة الأولى من نهضتنا السينمائية ولم تزل الرحلة أمامنا طويلة شاقة — فان تركنا السفينة تجر غباب اليم بلا دفة ولا قيادة فإنى أخشى أن ترتطم بالصخر أو تجنح فتغرق . فنخسر كل ما تقدمناه .

فأناشدكم — يا أركان هذه الصناعة ودعائمها — أن تحكموا وضع دفة السفينة وتنظيم قيادتها لتتجه إلى خير المشتغلين بها والمنتفعين منها و إلى خير البلاد وتجيد سمعتها ونشر ثقافتها ومدنيتها وتقوية الروح القومية والمبادئ الخلقية التى تركز عليها حياة الأمم .

إننا نحمد الله على ما قطعناه من شوط فى هذا الميدان دون تنظيم ولا رعاية بل نهم على أساس الجهود الفردية المبعثرة المجتهدة — ولا شك أننا تقدمنا فى خلال ربع قرن ولكنه تقدم نسبى ضئيل إلى جانب التقدم العالمى العام — ولا سبيل لنا لتعويض ما فاتنا بغير التعاون والتنظيم والإشراف الحكومى بالمعاونة المالية والأدبية وتكوين الفنيين تكوينا فنيا صحيحا يصل بهم إلى مستوى زملائهم فى العالم الجديد .

ولى بعد ذلك رجاء أوجهه إلى الصحافة الجليلة — وهى مرآة الرأى العام — ذلك ألا تبالغ فى تدليل المشتغلين بصناعة السينما فتسرف فى مجاملتهم كما ألفناه منها على الدوام — فلست أذكر أننى قرأت مرة نقدا صريحا لفيلم من الأفلام — وليس النقد الجزيه إلا توجيها للخير و إظهارا للعيوب ويجب أن يعد المنتجون والمغنيون أنفسهم لتقبل النقد بقبول حسن وصدر رحب بدل أن يكلفوا أنفسهم عناء التعليق بأنفسهم على أفلامهم و إعطائها للصحف كاعلان مأجور — ففى هذا مفسدة للإنتاج ووقوف به عند حد الجمود دون أن يصلح ما فيه فيخطو بخطوات ثابتة إلى الأمام .

عبد الله فكرى أباظه

من حكم الامام على

الحكمة ضالة المؤمن . فخذ الحكمة ولو من أهل النفاق .